الفصل الثالث

منافذ التجديد

ربما لا نتجاوز الحد أو نصدم الحقائق إذا أطلقنا كلمة التجديد على ما جاء به شعراء هذا العصر . فلقد وجد هؤلاء الشعراء أنفسهم في ضائقة بلغت الغاية . فتحوا عيونهم فرأوا أمامهم تراثاً غنياً ، وعبقريات فذة ، وذُرا فنية سامقة، فوقفوا حيال ذلك دهشين معجبين . وأيقنوا أنهم قد سُبقوا إلى كل شيء ، وغفلوا عن أوسع الميادين وأغناها مما لا ينقطع صوبه ، ولا ينضب معينه ، ذلك هو ميدان النفس : بأغوارها ومساربها وانفعالاتها وردود فعلها ؛ في احتكاكها بالواقع والأحياء،وتأملها في ذلك كله ، هذا بغض النظر عن أحوال المجتمع وأحداث العصر .

غفلوا عن هذا المعين الثرّ واتجهوا صوب المعاني ! فما إن يعالج أحدهم معنى — وهو يظن جذلاً أنه قد وقع على جديد — حتى تتعالى من حوله الأصوات تذكّره بمن قال في هذا المعنى فبرع . ولا يكاد يطرق فكرة حتى يجد القول وقد أُشبع فيها من قبل ؛ ممن ملأت شهرته آفاق الأدب ، فسد إليها كل سبيل .

وهكذا أيقنوا جميعاً أن ميدان المعاني لا جديد فيه ، وما عليهم إلا أن يأخذوا من الأسلاف معترفين غير متحرجين .

ولكن هذا لم يكن يعني في نظرهم العجز والاستسلام :

وما عَقِمَتْ أمُّ النَّدَى بعد حاتمٍ لها كُلَّ يومٍ في البَرِيَّةِ مَوْلودُ

كما يقول الصفدي[1] . فإن فاتهم التجديد في المعاني ، فإن ميدان الصياغة ، والتجديد في أساليب الأداء ؛ لا يزال متسعاً . فتنادوا إليه زرافات ووحدانا ، وقدموا بين يدي الأدب الكثير مما فخروا به ، وعدّوه فتحاً لم يسبقوا إليه ، وأنهم به قد بلغوا الغاية التي لا تسامى . وفي ذلك يقول الصفدي :

« لتعلم أيها الواقف على كتابي هذا ؛ أن ابن الأثير — رحمه الله — ما أتى بطائل ، وأنه لو تأخر وجوده إلى هذا العصر ، علم أن قوله ليس بحجة ، وأن قطره يغرق في مثل هذه اللجة ، وأن الناس قد بلغوا محط الرحال وهو إلى الآن في الدلجة[2] » .

ونستطيع أن نعيد تجديدهم هذا إلى مصادر أساسية ثلاثة :

— أولها المعاني القديمة نفسها ، فاستقوا منها بما ابتكروه لذلك من الطرق المختلفة .

— ثانيها الاستمداد من القرآن والحديث ومعطيات الثقافة .

— وثالثها وقد قام على الألفاظ المفردة والتنويع في أساليب الأداء .

وما علينا الآن إلا أن نتقدم إلى هذه المنافذ ؛ لنطل على الجديد الذي حدثونا عنه ، مما سترد وجوهه فيما يلي :

١ — التوليد :

وذلك كما يقول الصفدي بأن « يولد المعنى من معنى آخر كقول ابن المعتز :

---

(١) نصرة الثائر ٥١

(٢) المصدر السابق ٣٤١

وأَرَى الثُّرَيَّا في السَّماء كأَنَّها قَدَمٌ تَبَدَّتْ من ثِيابِ حِدادِ

« فإنه ولد هذا المعنى من قول الآخر :

كأَنَّ كُؤُوسَ الشَّربِ واللَّيْلُ مُظْلِمٌ وجوهُ عَذَارَى في مَلاحِفَ سُودِ

« وكما قال ابن الذروي وقد ذكر أهل النوبة في مدح صلاح الدين :

سُودٌ وتَحْمَرُّ الظُّبا حَوْلَها كأَعْيُنِ الرِّئْمِ بَدَتْ للأُساةْ
أَوْ لا فَسُمْرٌ تَنْتَحيها ٱلْقَنا مِثْلَ دِنانٍ بُذِلَتْ للسُّقاةْ

« فإنه ولد هذا المعنى الأول من قول الأرّجاني :

وكأَنَّ كُلَّ شَقيقةٍ مُحْمَرَّةٍ كَحَلَتْ محاجِرَها بأَحْمَرَ قانِ
عَيْنٌ لإِنسانٍ وقد رَمِدَتْ فما يَبْدو لِرامِقِها سِوى الإِنْسانِ

« وولد المعنى الثاني من قول أبي العلاء المعري في تشبيه البرق :

اذا ما اهْتاجَ أَحْمَرَ مُسْتَطيراً حَسِبْتَ اللَّيْلَ زِنْجِيّاً جَريحا

« ولعمري لقد تصرف في هذا التشبيه الثاني تصرفاً حسناً .

« وكما ولدت أنا من قول الحصري :

الناسُ كالأَرْضِ ومنها هُمُ مِنْ خَشِنِ اللَّمْسِ ومِنْ لَيِّنِ
مَرْوٌ تَشَكَّى منه الرِّجْلُ الأَذى وإِثْمِدٌ يُجْعَلُ في الأَعْيُنِ

« فنقلته إلى معنى المتنبي المشهور وقلت :

مَوْلًى تَفَرَّعَ مِنْ كِرامٍ وَجْهُهُمْ وَبِنائُهُمْ للمُجْتَلي والمُجْتَني

سادُوا الأَنامَ عُلاً وهُمْ من جِنْسِهِمْ ومِنَ الحِجَارَةِ إِثْمِدٌ في الأَعْيُنِ

« وولدت أيضاً من قول بعض العرب :

كأَنَّ هِلالَهُ مِـــرْآةُ قَيْنٍ لها شَطْرٌ يَلوحُ مِنَ الغِلافِ

« فقلت في العِذار :

قُلْتُ إذ قيل تَسَلَّ فهـــذا صَدْغُهُ قد دَجا وكانَ يُنيرُ

هي مِرْآةُ خَدِّهِ غابَ منها في غِلافِ العِذارِ شَيْءٌ يَسيرُ »[1]

وواضح أن ما قصده بالتوليد ؛ ما هو إلا أخذ لأسمى ما في البيت ، أومايشكّل نقطة ارتكازه وأروع ما فيه ، فيتناول المعنى أو اللفظ أو كليهما معا .

فظهور بياض البشرة من بين السواد ؛ هو أكثر عناصر الصورة إثارة في البيت الاول ، وكذلك كان اللون الأحمر في الإطار الأسود هو لب القول الثاني .

أما ما ادعاه الصفدي من توليده معناه من قول الحصري فقد أخذ الفكرة وأبرز عباراتها ، وهو فكرة التباين والإثمد في العين . وكذلك في قوله الأخير فإن اختفاء الإشراق تحت الغلاف هو أبرع ما يثب له الحس وكان هو ماتناوله الصفدي تحت اسم التوليد .

٢ — الانتزاع :

وننتقل إلى النافذة الثانية ، لنرى أن التجديد هنا حمل اسم الانتزاع أو ما دعوه كذلك : باستخراج معنى مبتدع من معنى ليس بمبتدع . وفي ذلك يقول

---

(١) نصرة الثائر ١٩١ وما بعدها

الصفدي : « أما انتزاع المعنى الغريب من معنى آخر فكقول مسلم ابن الوليد :

تَظَلَّمَ المالُ والأَعداءُ من يَدِهِ لا زالَ للمالِ والأَعداءِ ظَلَّاما

« انتزعه من قول أبي نواس :

بُحَّ صَوْتُ المالِ مما مِنْكَ يَشْكُو ويَصيحُ

« فقول مسلم أفصح ومعناه أبلغ :

« وقد اتفقت لي انتزاعات معانٍ ـ من معان هي دونها ـ غريبة . من ذلك قول بيليك القبجاقي المعري في الأُتْرُجّ :

وأُتْرُجَّةٍ جاءَتْ إليْكَ هَدِيَّةً فَشَبَّهْتُ منها الرِّيحَ رِيحَ حَبِيبِ
إذا نَظَرَتْ عَيْني إليها تَمَثَّلَتْ بِكَفِّ مَريضٍ مَدَّها لطَبِيبِ

« انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أيا حُسْنَ أُتْرُجٍّ يَلُوحُ لناظِري عليه من الأَوراقِ خُضْرُ الغَلايِلِ
حَكَى مُشْتَهاماً غَيَّرَ البَيْنُ حالَهُ وقد عَدَّ أَيامَ الجَفا بالأَناملِ

« ومن ذلك قول مهيار الديلمي :

هل السابقُ العَجْلانَ يَمْلِكُ أَمْرَهُ فَما كُلُّ سَيْرِ اليَعْمَلاتِ وَخِيدُ
رُوَيْداً بأَخْفافِ المَطايا فإِنَّما تُداسُ جِباهٌ في الثَّرى وخُدُودُ

« انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أَضحَى نَسيمُ دِمَشْقَ حَيَّاها الحَيَا يَمْشي الهُوَيْنَا في ظِلَالِ حِمَاها

وكأنّهُ مِنْ مائِها وهضابِهـا ما داسَ إلا أَعْيُناً وجباها»[1]

وأمر الانتزاع واضح كما يبدو ، فالشاعر اللاحق لا يرضى عن تعبير سابقه عن المعنى ؛ فيصوغه له في ثوب جديد تتحقق فيه عناصر الفصاحة والجمال . وقد بدا ذلك متحققاً فيما سلف من الشعر .

٣ — نقل المعنى من غرض الى آخر :

وقد مهد الصفدي لهذا بقوله : « والذي نقله أئمة الأدب عن الجاحظ أنه قال : وجدنا المعاني تُقلب ويؤخذ بعضها من بعض ، إلا قول عنترة في الذباب :

وخلا الذُّبابُ بها فليس ببارحٍ غرِداً كفعلِ الشّاربِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجاً يَحُكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ قدحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

« غير أن ذا الرمة نقل معنى الصفة إلى الجندب فقال :

كأنَّ رِجْليْهِ رِجْلا مُقْطِفٍ عَجِلٍ إذا تَجاذَبَ مِنْ بُرْدَيْهِ تَرْنيمُ »[2]

« ومن قول ابن الرومي :

كَدَأْبِ عَلِيٍّ في المَواطِنِ جَدِّهِ أبي حَسَنٍ والغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخرجُ

« وقد نقلت أنا هذا المعنى إلى الغزل . فقلت في مليح رأيته في طاقة :

رَأَيْتُ في طاقَةٍ كالبَدْرِ وَجْهَ فَتىً فَقُلْتُ مِنْ تَحْتِ هذا البَاتَةُ النَضِرَهْ

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٠٨
(٢) « « ١٩٧ وما بعدها

قالوا حَكَمْتَ وماأَبْصَرْتَ قامَتَهُ فَقُلْتُ إني عَرَفْتُ الغُصْنَ بالثَّمَرَهْ[1]

« وقال مسلم ابن الوليد :

فَغَطَّتْ بأَيْديها ثِمَارَ نُحُورِها كأَيْدي الأَسارَى أَثْقَلَتْها الجَوامعُ

« نقل السّلامي هذا المعنى إلى الزنبور فقال :

إذا حَكَّ أَعْلَى رأْسِهِ فَكأَنَّما بِسالِفَتَيْهِ مِنْ يَدَيْهِ جَوامِعُ[2]

٤ — عكس المعنى الى ضده :

يقول فيه الصفدي : « وهو في التشبيه كثير ، لأن التشبيه واقع بين طرفين، شبيه ومشبه به ، فإذا شبهت النجوم بالشرار جاز ان تشبه الشرار بالنجوم ، واذا شبهت البرق بالسيف جاز أن تشبه السيف بالبرق ، واذا شبهت الهلال بالقلامة جاز أن تشبه القُلامة بالهلال .

« قال ابن المعتز :

ولاحَ ضوءُ هِلالٍ كادَ يَفْضَحُنا مِثْلُ القُلامةِ إذ قُدَّتْ من الظُفُرِ

« وعكس ذلك سعد الدين ابن عربي فقال في مليح قلّم أظفاره :

أَبْعَدْتَ ظُفْرَكَ وهْوَ بَعْضُكَ فالذي يَهْوَاكَ أَجْدَرُ بالبِعادِ الأَطْوَلِ

فأَجابني أَتَظُنُّني قَلَّمْتُهَا عن حاجةٍ لا بَلْ لِمَعْنًى عَنَّ لي

---

(١) نصرة الثائر ص ١٢٩

(٢) » » » ٢٠٣

لأُريك يا مَنْ بالهلالِ يَقيسُني أنَّ الهلالَ قُلامَةٌ مِنْ أُنْمُلي

« وعكست أنا قول بعضهم في الورد :

كأنَّ احْمرارَ الوَرْدِ والطَلُّ فَوْقَه خُدودٌ تَوالَى فَوْقَها الدَّمْعُ بالوَكْفِ

« فقلت من أبيات :

أَقْسَمْتُ ماسَجَعَتْ وُرْقُ الحَمائِمِ في رَوْضٍ على مِثْلِ عِطْفَيْها ولا صَدَحَتْ

وكُلَّما اعْتَدَلَتْ بالمَيْلِ قامَتُها رَأَيْتُها فَوْقَ حُسْنِ الغُصْنِ قد رَجَحَتْ

وما اكْتَسَى خَدُّها مِنْ لُؤْلُؤٍ عَرَقاً لكنَّها وَرْدَةٌ بالطَلِّ قد رَشَحَتْ (٣)

وعلى هذا فعكس المعنى إلى ضده هو استناد كامل على المعنى السابق ، لا يبذل فيه الشاعر العاكس شيئاً يذكر من جهد وفكر أو خيال .

٥ ـــ التضمين :

وهو نوع من التسلق على معاني السابقين ؛ والاستناد إلى دعائمهم في شد جوانب البيت ، وقد زاد انتشارُه في هذا العصر حتى لم يَخْلُ منه شاعر ، وأضحى اعتمادهم عليه ، وغدونا نسمع بين شاطره التضمين شعره إذ قال مجير الدين محمد ابن تميم :

أُطالِعُ كُلَّ دِيوانٍ أراهُ ولَمْ أَزْجُرْ عن التَّضْمِينِ طَيْري

أُضَمِّنُ كُلَّ بَيْتٍ فيه مَعْنى فَشِعْري نِصْفُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْري

---

(١) نصرة الثائر ١٩٢ وما بعدها

« ونقلت من خط سراج الدين عمر الوراق له :

تَوارَتْ مِنَ الواشي بِلَيْلٍ ذَوائِبٍ له من جَبينٍ واضحٍ تَحْتَهُ فَجْرُ
قَدَلَّ عليهـــا شَعْرُها بِظَلامِهِ وفي اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

« وكتبتُ على مجلد قديم قد رث :

مَلَكْتُ كتاباً أَخْلَقَ الدَّهْرُ جِلْدَهُ وما أَحَدٌ في دَهْرِهِ بِمُخَلَّدِ
إذا عايَنَتْ كُتْبي الجَديدةُ حالَهُ يقولون لا تَهلِكْ أسىً وتَجَلَّدِ »(١)

٦ ــ الاقتباس من القرآن الكريم :

لم يترك أدباء هذا العصر ــ وقد جفت قرائحهم ــ مصدراً لاقتناص المعاني وتحصيلها ؛ إلا سعوا اليه وأخذوا منه ، وكان القرآن الكريم ببيانه المعجز وأسلوبه العلوي ؛ أجدر هذه المصادر باهتمامهم ، فراحوا يقتبسون منه ، ويشدون بذلك من أزر أساليبهم ، حتى غدا وجود آية في النص الأدبي أدعى لقبوله ودفع الإيراد عليه .

من ذلك تعليق الصفدي على عبارة لابن الاثير ، يذكر فيها هدية رُطب لبعض ملوك الشام جاء فيها : « ولما استقلت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أربا ، وما منها إلا أن قال ياليتني كنت رطبا ، فقال الصفدي : « وأين هذا من قول أبي الحسين الجزار :

قُلْتُ لَمّا سَكَبَ السّا قي على الأَرْضِ الشَّرابا
غَيْرَةً مِنّي عليهِ لَيْتَني كُنْتُ تُرابا

(١) الغيث المسجم ٧٣/١ وما بعدها

فإن هذا أتى بلفظ القرآن العظيم ، فكان له في السمع وقع ، وفي القلب حلاوة ، ولو كان قوله (ليتني كنت رطبا) بعض آية أو بعض بيت أو بعض مثل ، أو معنى متداولاً فيه شيء فنقله إلى هذا لكان حسنا[1] » .

وقوله حول عبارة أخرى لابن الأثير أيضاً « ثم إنه ذكر النخل فوصفه بوصف غير طائل ، لولا أنه ختم السجع ببعض آية من القرآن لكان سمجا[2] » .

« وقال ابن النبيه :

لو لم تَكُنْ إبْنَةُ العُنْقودِ رِيقَتَه ... لَمَا غدا خدُّه القاني أبا لَهَبِ
تَبَّتْ يدا عاذلي فيه وَوَجْنَتُهُ ... حَمّالةُ الوَرْدِ لا حَمّالةُ الحَطَبِ[3]

« وبيت الطغرائي :

فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقاً ... في الأَرْضِ أو سُلَّماً في الجَوِّ فاعْتَزِلِ

« الطغرائي اقتبس كلامه هنا من قوله تعالى : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت ان تبتغي نفقاً في الأرض او سلماً في السماء[4] » .

٧ — الاستحضار من الحديث الشريف :

قال ابن الأثير يصف حصار العدو لإحدى البلاد ، وحصار الثلج لهذا العدو : « والشتاء قد لقي عسكره من البرد بعسكره ، والسماء قد قابلته بأغبر وجهه لا بأخضره ، والأرض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض محشره » .

---

(١) نصرة الثائر ٢٤٣
(٢) « « ٣٠١
(٣) « « ٣٢٥
(٤) الغيث المسجم ٢ / ٣٥

قال الصفدي : « ثم أخذ في ذكر اختراع المعنى من الحديث النبوي وهو : « إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي[1] » .

٨ ــ التورية :

كما أغرم شعراء العصر بالتورية لما فيها من الإثارة « وما أحسن قول بحير الدين ابن تميم في النيلوفر :

غدا النَّيْنَوْفَرُ المُصْفَرُّ يَحْكي النَّـ .. ـجومَ فلا يُغادِرُها شَبيهـا
تَغوصُ العَيْنُ فيه إذا تجلَّى النَّـ .. ـهارُ وفي الظَّلامِ يَغوصُ فيها

« وقد استخدم العين هنا في معنيين : أولها العين الباصرة ، والثاني العين الجارية[2] » .
« ونقلت من خط السراج الوراق له :

أنا الذي مَرِضْتُ شَهْراً كاملاً فما رأيْتُ عائداً ولا صِلَهْ[3] »

٩ ــ الإلغاز :

وقد عمد الصفدي إلى تعريف اللغز بقوله « اللغز هو أن تذكر شيئاً بصفات يشاركه فيها غيره ، فيرجع الذهن في ذلك إلى حيرة لايدري مصرفها إلى أي متصف منها بتلك الصفات ، لكونها تصدق من جهة وتكذب من أخرى . واشتقاقه من السُّلغَيْزَى ، وهي حفر يحفرها اليربوع تحت الأرض ويجعلها متشعبة يمنة ويسرة ليخفي أمره على من يقصده ، فإذا طلبه في واحد منها خرج من آخر .

---

(١) نصرة الثائر ٢١٥
(٢) « « ٢٣٢
(٣) الغيث المسجم ١ / ٣٣

ثم يقدم لنا نموذجاً للإلغاز فيقول « ألا ترى أن السامع إذا سمع قول القائل :

جاريَةٌ جاءَتْ مِنَ ٱلهِنْدِ يَحُثُّها السَّيْرُ إلى القَصْدِ
لها بَناتٌ لَسْنَ من جِنْسِها في حدِّهِمْ جُزْنَ عنِ الحَدِّ
لَهُمْ قُرونٌ ولها حافِرٌ وذاكَ من أغْرَبِ ما أُبْدِي
وأعْجَبُ الأشْياءِ أوْلادُها يُكَلِّمون النّاسَ في المَهْدِ

أخذ يقول في نفسه : في البيت الأول ، جارية جاءت من الهند يحثها السير . ما في ذا شيء . فإذا سمع الثاني : لها بنات لسن من جنسها ؛ رجع في الحيرة وفكر وقال : كيف يكنّ من غير جنس أمهن . !! فإذا سمع الثالث : لهم قرون ولها حافر ؛ زاد في حيرته وقال : لسن هؤلاء ولا أمهن من الأناسيّ . فإذا سمع الرابع : يكلمون الناس في المهد ؛ تأكدت حيرته ثم رجع إلى أنهن من الأناسي لإثبات المهد والكلام ، وأخذ يعمل فكرته في موجود متصف بهذه الصفات ، فإذا أعيا مال إلى الألفاظ المشتركة ، ونزله بقوة فكرته وإصابة حدسه على أن ذلك لايصدق إلا على الدست الذي للفاصد وريشه .

وما أحلى ما استعمل هذا الشاعر السير والحافر والتكليم . وهكذا يكون اللغز »[1]

« وأحسن من ذلك كله وألطف قول بعضهم في الخلخال :

ومَضْروبٍ بلا جُرْمٍ مَليحِ اللَّوْنِ مَعْشوقِ
لَهُ قَدُّ الهِلالِ على مَليحِ القَدِّ مَمْشوقِ
وأكْثَرُ ما يُرَى أبَداً على الأمْشاطِ في السّوقِ

(١) نصرة الثائر ٣٤٧ وما بعدها

« وما أحلى قول القائل ملغزاً في دُمْلُج[1] :

إلى النِّساءِ يَلْتَجي وعِنْدَهُنَّ يوجَدُ
الجِسْمُ منه فِضَّةٌ والقَلْبُ منه جَلْمَدُ[2]

ويبدو أن الاهتمام بالألغاز كان بالغاً ، وأضحى باباً أصيلاً من أبواب شعر المقاطيع ، حتى ألفت فيه الكتب الخاصة ، منها كتاب الحظيري (الإعجاز في الأحاجي والألغاز) . الذي ذكره الصفدي في نصرة الثائر[3] .

١٠ ــ استعمال مصطلحات النحو :

وقد كشف الصفدي عن شدة اهتمام الشعراء في استخدام هــذه المصطلحات فقال : وهذا الباب أيضاً مما تقدم ، وسوره مما خرب وتهدم ، قد دخل الناس فيه أفواجا ، وراقت لآلئهم فيه انفراداً وازدواجا[4] .

« وما أحلى قول البهاء زهير :

لَمْ يَقْضِ زَيْدُكُمُ مِنْ وَصْلِكُمْ وَطَرَهْ ولا قَضَى لَيْلُهُ في هَجْرِكُمْ سَحَرَهْ
تَرَكْتُمُ خَبَرِي في الهَجْرِ مُبْتَدَأً وكُلُّ مَعْرِفَةٍ لي في الهَوَى نَكِرَهْ[5]

« وقال السراج الوراق يرثي الجزار :

---

(١) حلي يلبس في العضد .
(٢) نصرة الثائر ٣٤١ وما بعدها
(٣) « « ٣٤٢
(٤) « « ٣٢٦
(٥) « « ٣٧٦

نَصَبَ العَدَاوَةَ حاسِدُوكَ فأُعْقِبوا جَزْماً لأَلْسُنِهِمْ وَخَفْضِ الشَّانِ
فَمَتَى أَرادُوا أَدْبَرُوا ورُؤُوسُهُمْ مَرْفُوعَةٌ بِعَوامِلِ المُرَّانِ

١١ — حسن التعليل :

مستفيدين في ذلك من معطيات الثقافة ، معتمدين قوة العارضة المنطقية . هذا شمس المعالي قابوس يعلل لتدني منزلته فيقول :

أَمَا تَرَى البَحْرَ تَعْلو فَوْقَهُ جِيَفٌ وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
وفي السَّماءِ نُجومٌ لا عِدادَ لَها وليس يُكْسَفُ إلاَّ الشَّمْسُ والْقَمَرُ»[1]

وقال بعض الشعراء :

اِقْنَعْ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ أَنْتَ نائِلُهُ واصْبِرْ ولا تَتَعَرَّضْ للوِلاياتِ
فما صفا النِّيلُ إلا وَهْوَ مُنْتَقِصٌ ولا تَكَدَّرَ إلا في الزِّياداتِ[2]

وقال بعضهم :

أَمْسَيْتُ أَرْحَمُ أُتْرُجّاً وأَحْسَبُهُ في صُفْرَةِ اللَّوْنِ مِنْ بَعْضِ المَساكِينِ
عَجِبْتُ منه فما أَدري أَصُفْرَتُهُ مِنْ فُرْقَةِ الغُصْنِ أَمْ خَوفِ السَّكاكِينِ[3]

---

(١) الغيث المسجم ١٦٧/٢
(٢) « « ٢٠٩/٢
(٣) « « ٢٠٠/٢

١٢ ــ التهرب اللفظي :

لقد كان ميدان الألفاظ والتصرف بها أوسع الميادين التي بقيت لشعراء هذا العصر كما رأوا ، فتزاحموا فيه يقدمون أعمالاً غريبة وألاعيب عجيبة ؛ مما سترد نماذجه فيما يلي :

« من ذلك قطعة إذا قرئت لاتتحرك فيها الشفتان . وهي :

ها أَنذا عارِي الجَلَدْ أَسْهَرَني الذي رَقَدْ
آهٍ لِعَيْنٍ نَظَرَتْ إلى غَزالٍ ذي غَيَدْ
أَرَيْتَني يا ناظِري صَيْدَ الغَزالِ للأَسَدْ .. الخ

« وكذلك قطعة أنصافها الأول معجمة والثواني مهملة . منها :

بي شَغَفٌ شَبَّ بين جَنْبَيَّ دواؤهُ الوُدُّ والوِصالُ
يُمِتُّ بَثِّي خَفِيَّ غَيْظٍ أَحْوَرُ مَوْعُودُهُ مُحالُ
زَيَّنَ خَيْبَيْنِ غُنْجِ جَفْنٍ ومُلْحِ دَلٍّ له كَمالُ

وقول الفاضل :

يا غادِياً شِبْهَ السَّفِـ ـيهِ وعائداً مِثْلَ الحَلِيمْ
ضَيَّعْتَ مِقْرَعَةً وعُدْ تَ شَبِيهَها من غَيْرِ مِيمْ[1]

« وما أحسن قول الأرجاني :

---

(١) الغيث المسجم ٢/٢١٨

كُنَّا جميعاً والدَّارُ تَجْمَعُنا مثلَ حُروفِ الجَميعِ مُلْتَصِقَهْ
واليَومَ جاءَ الوَداعُ يَجْعَلُنا مثلَ حُروفِ الوَداعِ مُفْتَرِقَهْ[1]

« وعلى ذكر القلب فما أحسن قول القائل :

جاذَبْتُها والرِّيحُ تَضْرِبُ عَقْرَباً مِنْ فَوْقِ خَدٍّ مِثْلِ قَلْبِ العَقْرَبِ
فَتَمايَلَتْ عَجَباً وصَدَّتْ وانْثَنَتْ وتَسَتَّرَتْ عَنِّي بِقَلْبِ العَقْرَبِ[2]

« ومن ذلك قول القائل :

قالَت لِتِرْبٍ مَعَها مُنْكِرَةً لِوَقْفَتي ، هذا الذي نَرَاهُ مَنْ ؟
قالَت : فتىً يَشْكو الهَوَى مُتَيَّمٌ قالَت بِمَنْ ؟ قالَت بِمَن قالت بِمَنْ

« وهذا في غاية الحسن ، يظن السامع له من أول وهلة أنه من باب التكرار وتحصيل الحاصل . الى أن يشحذ ذهنه ويتأمل غرض الشاعر فيرقص له طرباً[3] » .

« وكذلك قول القائل :

لَبِقٌ أَقْبَلَ فيهِ هَيَفٌ كُلُّما أَمْلِكُ إنْ غَنَّى هِبَهْ

« فان كل كلمتين من هذا لايتغير معناها بالانعكاس إلا القافية ، فإنها في نفسها معلومة . وليس على ذلك أثر كلفة .

« ومثله قول القائل :

---

(١) الغيث ٢/٤٠٠
(٢) « ٢/٤٠٣
(٣) « ٢/٣٨٩

رَقَّتْ شَمَائِلُ قاتِلي فَلِذاكَ رُوحِي لا تَقَرُّ
رَدَّ الْحَبِيبُ جَوَابَهُ فَكَأَنَّهُ فِي اللَّفْظِ دُرُّ

أول كل بيت عكس الكلمة الأخيرة منه وليس عليه كلفة .

« وقد وجدت للقاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ خطبة وضعها لدخول العام الجديد وهي طويلة ، كلها عري عن الإعجام . وهي في غاية الحسن .

« ووجدت الوراق الحظيري قد تكلف أشياء من هذه الأنواع ، ومن ذلك بيتان كل كلمة منها مهموزة وهما :

بِأَبِي أَغْيَدُ أَذَابَ فُؤادي إِذ تَنَاءى وأَظْهَرَ الإِعْراضا
رَشَأٌ يَأْلَفُ الجَفاءَ فَإِنْ أَقْ بَلَ أَبْدَى لآمِلِيهِ انْقِباضا

وفي انقباض نظر [1] » :

فهذه نماذج من التجديد بطريق التفنن في استخدام الألفاظ وتقليبها ، بل إنه الألاعيب اللفظية التي ظن القوم أنهم إنما بلغوا بها وبأمثالها محط الرحال ؛ مما لم يأت به أحد قبلهم .

١٣ ـــ الغلو والإغراب :

من ذلك قول الشاعر :

ولَمَّا ٱلْتَقَى الواشُونَ والرَّكْبُ ظاعِنٌ وَقَد رامَ للتَّوْدِيعِ مني تَدانِيا

(١) نصرة الثائر ٣٧١ وما بعدها

بَدَتْ في مُحَيَّاهُ خيالاتُ أَدْمُعِي صَفاءً ، فَظَنُّوهُ بَكَى لِبُكائِيا

وقال الآخر :

وَمُهَفْهَفٍ قَسَمَ الإلهُ مِثالَهُ نِصْفَيْنِ من غُصْنٍ ومِنْ رَمْلِ
فإذا تَأَمَّلَ في الزُّجاجةِ ظِلَّهُ جَرَحَتْهُ مُقْلَةُ لَحْظَةِ الظِلِّ[1]

١٤ ـ الإطراف :

وهي أن يأتي الشاعر بالمعاني الرشيقة الطريفة ، فتكون منها صورة غير مألوفة تنفرج لها الشفتان بابتسامة ما .

من ذلك قول الصفدي في خفقان القلب :

لمّا رَقَدْتُ أَتَى خَيالُكَ بَغْتَةً فَغَدا فُؤادي خافِقاً يَتَمَوَّجُ
لوْ أَنَّ صَحْبي شاهَدوني في الكَرَى وَالقَلْبُ يَرْقُصُ في الخَيالِ تَفَرَّجوا[2]

ومنه قول الأرجاني :

وقالوا انْتَبِهْ مِنْ رَقْدَةِ اللَّهْوِ والصِّبا فقد لاحَ صُبْحٌ في دُجاكَ عَجيبُ
فَقُلْتُ : أَخِلَّائي دعوني ولذتي فإنَّ الكرى عند الصباحِ يطيبُ

---

(١) الغيث المسجم ٢/٣٩٣
(٢) نصرة الثائر ٢٢٤

١٥ ـ الإشكال :

وقد وجدت لأبي الحسن الطوسي الفقيه بيتين ؛ يُسأل عن معنى الثاني منهما وهما :

مَنَّيْنَني حِيناً فَلَمّا أنْ مَلَلْتُ مِنَ التَّمَنِّي
عَرَّضْنَ لي بالوَصْلِ حَتَّى قُلْتُ قَدْ أَعْرَضْنَ عَنِّي

« الإشكال فيه أنه كيف يعرضن له بالوصل وهو يدعي أنهن اعرضن عنه ، والمعرض لا يعرض بالوصل ، والجواب : إن (قد) هنا بمعنى حسْب . وذلك أحد مواردها . كقول أبي تمام : (قَدْكَ اتَّئِبْ أربيت في الغلواء) أي حسبك .

« والمعنى : منيني زمانا إلى أن مللت ، ثم عرّضن لي بالوصال حتى إذا قلت هذا حسبي أعرضن عني .

« واتفق لي فيما قلت بيتان ثانيهما مشكل . وهما :

قال وقَدْ أَبْصَرَ دَمْعي دَماً هذا وما رُعْتُكَ بالبَيْنِ
فَقُلْتُ : لَمّا فَنِيَتْ أَدْمُعي بَكَيْتُ بالدَّمْعِ بلا عَيْنِ

« الإشكال في ذلك ، أنه كيف يعترف بأن دموعه فنيت ونفدت ، ثم يقول بعد ذلك بكيت بالدمع بلا عين . وكيف يتفق البكاء بلا عين .. والجواب : انه قال أولاً إنه أبصره وقد بكى دماً فأنكر عليه ذلك . فقال : لما نفدت الدموع ولم يبق لي دمع بكيت بالدم . والعين هنا إنما يراد بها أحد حروف الهجاء أخت الغين المعجمة لا العين التي هي الجارحة من الانسان حاسة البصر . فإن الدمع إذا حذفت منه العين كان دماً[1] » .

---

(١) نصرة الثائر ٢٠٧

١٦ — أسماء الخلفاء :

قال الصفدي : « وهذا الباب ـ أعني أسماء الخلفاء في الألقاب ـ مما جسر الناس على دخوله ، وعبره كل أحد من المتأدبين وتصرف في محصوله . فإنه ساس القياد في التورية إذا جذب ، وسريع الارتفاع إذا أقيم أو نصب . قال ابن سناء الملك :

بايَعَتْهُ يدُ السَّعادَةِ والبيـ ـعةُ قد كَرَّرَتْ عليهِ اليَمِينُ
واصْطَفاهُ الرَّأْيُ الرَّشِيدُ على العا لَم فهو الأَمينُ والمَأْمونُ

« وقال سيف الدين المُشِدّ ابن قَزَل :

يا أَهْلَ وُدِّي دَعْوَةً من مُدْنَفٍ خَفِيَتْ شِكايَتُهُ عن العُوَّادِ
تاللهِ ما جَلَدي عليْكُمْ طائِعٌ كلاَّ ولا واللهِ قَلْبي الهادي

« وقال مجير الدين محمد ابن تميم :

يا مُؤْثِراً قَصْدي حَماةُ وخِدْمَتي سُلْطانُها من بَعدِ كُلِّ أَمِيرِ
أنا واثِقٌ بِرَشِيدِ رَأْيِكَ طائِعٌ لِأَمِينِهِ الهادِي إلى المَنْصورِ »[1]

١٧ — أسماء سور القرآن الكريم :

يقول الصفدي « وعلى الجملة فهذه الأشياء قد انتهك المتأخرون حرمتهـا ، ومنعوا من الآباء عصمتها ، خصوصاً أسماء الخلفاء كما تقدم ، وألقاب الإعراب وقد

(١) نصرة الثائر ٣٢٥ وما بعدها

تقدم ، وأسماء سور القرآن . كما قال أبو الحسين الجزار يمدح فخر القضاة نصر الله ابن بصاقة :

وَكَم لَيْلَةٍ قد بِتُّها مُعْسِراً وَلِي ... بِزُخْرُفِ آمالي كُنُوزٌ من اليُسْرِ
أقولُ لِفَقْرى كُلَّما اشْتَقْتُ لِلْغِنَى ... إذا جاءَ نصرُ اللهِ تَبَّتْ يَدُ الفَقْرِ

وكما قال ايضاً وقد خُلع على شاعر أسود ولم يُخلع عليه ، يخاطب جمال الدين ابن رمضان :

غَيْرُ خافٍ عَنْكَ الّذي نالَهُ الأَسْـ ... ـوَدُ بالأَمسِ من نَدَى السُّلْطانِ
وتَمَشِّيهِ بالعِمَـــامةِ والثَّوْ ... بِ ومِنديلِ الكُمِّ والطَّيْلَسانِ
قُلْتُ إذ فُصِّلَتْ عليه أرَى الزُّخْـ ... ـرُفَ يُتْلَى بالنَّصِّ فَوْقَ الدُّخانِ

وكما قال سيف الدين ابن قزل :

أُقسِمُ مِنْ جَفْنِيَ بالذّارياتْ ... ومِن دُموعِ العَيْنِ بالمُرْسَلاتْ
أنّي على الإخلاصِ في حُبِّكُمْ ... حتى تُرَى روحيَ في النّازِعاتْ

١٨ — أسماء المنازل والكواكب :

وهذه تسربت إليهم من ثقافة العصر . وإن دل استخدامهم لهذه المصطلحات في شعرهم على شيء ، فعلى سطحية تفاعلهم مع هذه العلوم ؛ النـــاجم بالتالي عن سطحية اطلاعهم عليها .

يقول « العدل برهان الدين ابن الفقيه نصر :

بِخِدْمَتِكُمْ لم أَنَلْ طائِلاً ... وميزانُ نَقْصي بِكُمْ راجِحْ

فَفي الطَّرْفِ من أَدْمُعِي نَثرَةٌ وفي القَلْبِ من سَعدِكُمْ ذابِحْ »[1]

كما قال ابن قزْل :

بَدْرٌ جَعَلْتُ القَلْبَ أَخْبِيَةً له كي لا يَراهُ رَقيبُهُ العَوّاءُ
خَلَعَتْ عليهِ الشَّمْسُ رَوْنَقَ حُسنِه وحَبَتْهُ رَوْنَقَ ثَغْرِهِ الْجَوزاءُ »

وكما قال الآخر في مليح يحرث :

ياحارِثاً تُرْوَى مَقاماتُ الْهوَى عَنْ طَرْفِهِ الفَتّاكِ غيرَ مُؤَوَّلَهْ
أَضحَى يَشُقُّ الْخُودَ مَن قَتَلَ الْهَوَى في حَرثِه ليستَ خطوطاً مُهمَلَه
روحي الفِداءُ لِبَدرِ تَمٍّ سائِقٍ لِلثَّورِ لَيسَ يَرومُ غَيرَ السُّنبُلَه»[2]

١٩ - أسماء مشايخ العلوم :

« كما قال أبو الحسين الجزار :

إنَّ فَصلَ الشِّتاءِ مُنذُ نَحا جِسـ ـمِيَ أَبدَت بيانَهُ الأَعضاءُ
فيه عَظمِي الْمُبَرِّدُ إذ عَنَّ الْكِسائِيُّ واحـتَمَى الْفَرّاءُ

وكما قال ناصر الدين حسن ابن النقيب :

يا مَن مَقاماتُه في الْجودِ مُذهبَةٌ ومَن تَشَاريفُهُ وَشيٌ ودِيباجُ

---

(١) نصرة الثائر ٢٦١
(٢) » » ٣٣٠

أُعطيتني جَسَداً مُلقىً ولَيسَ بِهِ رُوحٌ ، و لِلبَردِ إقلاقٌ وإزعاجُ
وليس عن فَروَةٍ تَحتَ الحَريرِ غِنىً إنَّ الحَريريَّ للفَرّاءِ مُحتـــاجُ

وكما قال مجير الدين محمد ابن تميم :

وصادِحَةٍ تَرَدَّدَ لي غِناها فَتُطرِبُني وأَجهَلُ ما تَقولُ
بِلَحنٍ حارَ إبراهيمُ فيهِ وَوَزنٍ ليس يَعرِفُهُ ٱلخليلُ

٢٠ — أسماء الكتب :

وفي اتخاذهم من أسماء الكتب منفذاً للتجديد في المعاني ؛ لم يعدموا فيهـــا ميداناً للتنافس ، فتسابقوا في عدد الأسماء التي يوردها الشاعر في الأبيات القليلة . ومن ذلك قول الشاعر :

ياسائِلي مِن بَعدِهِم عن حالتي تَركُ ٱلجَوابِ جَوابُ هذي المَسأَلَهْ
حالي إذا حَدَّثتُ لا جُمَلاً ولا لُمَعاً لإيضاحي لها من تَكمِلَهْ
عندي جَوىً يَذَرُ ٱلفَصيحَ مُبَلَّداً فاترُكْ مُفَصَّلَهُ ودُونَكَ مُجمَلَهْ
ٱلقَلبُ ليس من الصِّحَاحِ فَيُرتَجَى إصلاحُهُ والعَينُ سُحبٌ مُثقَلَهْ

وعقب الصفدي بقوله « وقد ذكر في هذه الثلاثة ، عشرة أسماء من تصانيف الأدب.

كما قال ابن قزل في مليح يلعب بالقانون :

تَرَى ابنَ سِيناءَ في يَدَيهِ أَقَلَّ مَلعوبٍ بِهِ الغِناءُ

---

(١) نصرة الثائر ٣٢٩

قانونُه المُرتَضَى نَجاةٌ كلُّ إشاراتِهِ شِفاءُ

« وقد ذكر في البيت الثاني على قصر بحره من مصنفات الرئيس [1] أربعة كتب.

وهذا كله ليس بشيء فقد « نظم شرف الدين القدسي ـ رحمه الله ـ قصيدة تقارب الخمسين بيتاً جمع فيها جملة من كتب التفسير والحديث والفقه والنحو واللغة وغير ذلك ، وذكر مشايخ العلوم وغيرهم وكلها غزل ، وأسماء البروج الاثني عشر والمنازل . . » [2] .

وهنا يقدم إلينا الصفدي آخر ما رصده من منافذ التجديد وهو :

٢١ ـ أسماء مشاهير العرب :

وينقل لنا بعضاً مما قاله الشعراء في هذا فيبدأ بقول ابن سناء الملك :

إني على ما كان شُغلي بالهَوَى لم يَشتَغِل وبَطالتي لم تَبطُلِ
أنا جَدُّ أنصارِ النَّبيِّ لأنَّني يا أشهَلَ العَينَينِ عبدُ الأشهَلِ

وقول ابن قزل :

عُدتُ فيه جاهِليَّ الـ ـحُبِّ من غيرِ تَعَدِّي
لَحظُ عَيني عَبدُ شَمسٍ وفُؤادي عَبدُ وُدِّ

وكما قال شمس الدين محمد ابن التلمساني :

وما كُنتُ مَجنونَ الهَوَى قبلَ أن يُرَى لِقَلبِيَ من صُدغَيكَ في الأسرِ عاقِلُ

---

(١) الرئيس هو ابن سينا .
(١) نصرة الثائر ٢٢٩

ولو أنَّ قُسّاً واصِفٌ مِنْكَ وَجنَةً لَأعجَزَهُ نَبْتٌ بها وَهوَ باقِلُ[1] »

ولم يكن هذا آخر ما ابتكره شعراء هذه الفترة على سبيل التجديد في المعاني ، ولكن الصفدي هاله ما رأى من كثرة هذه الوجوه فأشار إلى ذلك في عبارة وجيزة حين قال : « ... وأسماء المدن وأسماء الملل والنحل وأسماء أبحر العروض وأسماء القراء وأسماء أشكال الرمل وأسماء الشعراء وأسماء منازل العرب وأماكنها وأشياء غير هذه[2] .

هذا إذن أقصى ما عند الشعراء في هذه الفترة من قدرة على الإبداع ، ليجددوا في المعاني المتوارثة ، ويتحرروا من أسر الأسلاف ، ويثبتوا جدارتهم في تكوين عصر أدبي متميز .

ولا مراء في سطحية ما حققوا ، وبُعدِه عن مفهوم الشعر وأساليبه .

(١) نصرة الثائر ٣٣٠
(٢) المصدر السابق